أي: لم أرَ كاليوم، والتَّشبيه -على هذين القولين- فِي أعمال الذين مِن قَبْل، وقيل: إنَّ التشبيه فِي العذاب.

ثُم قيل: العامل مَحذوفٌ، أي: لعنهم وعذَّبهم، كما لعن الذين مِن قبلكم.

وقيل -وهو أجود-: بل العامل مَا تَقدَّم، أي: وعَد الله المُنافِقين كوعْد الذين مِن قبلكم، ولَعَنهم كلَعْن الذين مِن قبلكم، ولهم عذابٌ مُقيمٌ كالذين مِن قبلكم.

أو مَحلُّها نَصْبٌ، ويجوز أن يَكون رفعًا، أي: عذاب كعذاب الذين مِن قبلِكم.

وحقيقةُ الأمر علَى هَذا القول: أن الكاف تناولَها عامِلان ناصبان، أو ناصب ورافع، مِن جنس قولهم: أكرمت وأكرمني زيد؛ والنحويُّون لهم فيما إذا لم يَختلِف العامل -كقولك: أكرمت وأعطيت زيدًا- قولان:

أحدُهما -وهو قول سيبويه وأصحابه-: أنَّ العامِل فِي الاسم هُو أحدُهما، وأنَّ الآخر حُذِف مَعموله، لأنَّه لَا يَرى اجتماع عامِلين علَى مَعمول واحد.

والثاني: قول الفراء وغيرِه مِن الكوفيِّين: أنَّ الفِعلين عَمِلَا فِي هَذا الاسم، وهو يرى أنَّ العامِلَين يَعملان فِي المَعمول الواحد[1].

---

[١] الثاني أصح، ولدينا قاعدة فِي اختلاف النحويِّين، وهي أن نَتَّبع الأسهل مَا لم يَأباه المعنَى، وهنا لَا يَأباه المعنَى.

إذا قلت: قَدَّمت وأَكرَمت زيدًا، ما المانع أن يَعمَل قَدَّمتُ وأكرمت فِي زيد؟ لأنَّ التَّقديم والإكرام كلاهُما وقع عليه؛ أمَّا أن أقول: لا، أكرمت زيدًا، هي العامل، وحُذِفَ مِن الأَوَّل المفعول، وأصله: قَدَّمته وأكرمتُ زيدًا، من قال هَذا؟ لو جاء السياق بهَذا الأسلوبِ لكان ركيكًا.

فأنا أرى رأي الكوفيين فِي هَذا، أنَّه -أي: المَفعول- مَفعول للفِعلين جميعًا، ولا بأس أن يَجيء عامل ثالث، مثل: قدَّمتُ وأَكرَمتُ وأَعطَيتُ وأَهدَيتُ ووَهَبت وهكذا يَكون

.....

= مَعمولًا للعاملات كلها بدون مانِع، مَا لم يَأباه المعنَى، فإن أَباه فلا يُمكِن.

المُهِمُّ: أنَّ قولنا الذِي نَراه راجِحًا هو: أن يَتوارد عامِلان فأكثرُ علَى مَعمول واحد، ولا بأس بذلك فخُذ بِه تجدْهُ مُريحًا.

وفي هَذا البحث الذِي بحثه الشيخ رحمه الله دليلٌ علَى أنَّ الرجُل مُتبحِّرٌ فِي العلوم كلها، وهو كذلك؛ ومَن قرأ كُتُبه عرَف أنَّ الرجُل مُتبحِّر فِي العلوم.

وقد بَحَث ابن القيِّم رحمه الله فِي كتابه «بدائع الفوائد»، وهو أربعة أجزاء فِي مجلدين، وهو كتاب قيِّم يَصلُح لطالب العِلْم، بحث عن السِّرِّ فِي «مَدَح» و«حَمِد»[1]، فالحروف الثلاثة واحدة، لكن اختلف تَرتيبها، فاختلف المعنَى اختلافًا عظيمًا، وأطنب فِي ذَلِك وأطال ثُمَّ قال[2]: وكان شيخنا رحمه الله -يَقصِد ابن تيمية- إذا تَكلَّم فِي هَذا أتَى بالعَجَب العُجاب، ولكنَّه كما قيل:

تَأَلَّقَ الْـبَرْقُ نَجْـدِيًّا فَقُلْـتُ لَـهُ ... إِلَيْكَ عَنِّي فَإِنِّـي عَنْكَ مَشْغُولُ

بماذا؟ بما هُو أهمُّ مِن مُقارَعة الفلاسفة والمَناطِقة والمُتكلِّمين وغيرهم، فلن يَنشغِل ببحث فِي مسألة مِن مَسائِل النَّحو.

وكان أبو حيَّان رحمه الله صاحب «البحر المحيط» يُحِبُّه حبًّا شديدًا، وذكر فِيهِ قصيدةً عَصماءَ عظيمةً حتَّى غَلَا وقال فيها[3]:

قَامَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ فِي نَصْـرِ شِرْعَتِنَـا ... مَقَامَ سَيِّد تَيْمٍ إِذْ عَصَتْ مُضَـرُ

يَعنِي: أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٥٣٤ - ٥٤٠).

(٢) بدائع الفوائد (١/ ١٩٠).

(٣) ينظر: تاريخ ابن الوردي (٢/ ٢٧٨).

.....

يقول -يعني أبا حيَّان-: إنَّ شيخ الإسلام ابن تيمية حفظ الله به الأُمَّة الإسلامية كما حَفِظ الأُمَّة الإسلامية بأبي بكر الصدِّيق يوم الرِّدَّة، وهي قصيدة مَشهورة.

ولـمَّا قدِم شيخ الإسلام مصر جاء أبو حيان إلى شيخ الإسلام يُسلِّم عليه ويَحتَفي به ويَتَناظر معه فِي مَسألة مِن مَسائل النحو، وأبو حيان مِن علماء النحو، ويُعتَدُّ به، ويُؤخَذ بقوله، فاحتجَّ عليه أبو حيان بالكتاب -الكتاب المعروف بأل الذِي إذا أُطلِقَ فهو عند جَميع النحويِّين كتاب سيبويه، فأل للعَهْد الذِّهني -الَّذِي لَا تفر من الأذهان-؛ فقال له: إنَّ سيبويه ذكر فِي الكتاب كذا وكذا؛ خلافًا لقول شيخ الإسلام؛ فقال شيخ الإسلام رحمه الله: إنَّ سيبويه ليس نبيَّ النحو، حتَّى يَجِب علينا أن نَأخُذ بقوله، وإنَّه قد غلِط فِي كتابه هَذا فِي أكثرَ مِن ثمانين مَوضِعًا لَا تَعرِفها أنت ولا هو[1].

وبعد ذَلِك صار بينهما شيء، فقال أبو حيان فِيهِ قصيدة هِجاء، بعد قصيدة المدح، غفَر الله لهما جميعًا.

والمَقصود: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أعطى شيخ الإسلام ابنَ تيمية رحمه الله عِلْمًا قال عنه شيخنا مُحمد بن عبد العزيز المطوَّع -أحدُ تلاميذ شيخنا الكبير ابن سعدي رحمهما الله، والذِي أخذنا علَى يده أوَّل عِلْمنا-: إنَّ الرجل قد أُلين له العِلْم، كما أُلين الحديد لدَاوُد؛ وهَذا صحيح، فشيخ الإسلام رحمه الله عِنده مِن العِلْم الشيء الكثير؛ نَسأل اللهَ التَّوفيقَ.

وقال أيضًا شيخُنا -أعني: الشيخ محمد بن عبد العزيز المطوَّع رحمه الله-: إن هَذا الرجُل يُعتبر مَا أعطاه الله مِن العِلْم مِن الكرامات، لأنَّه فوقَ طاقة البشر؛ فأحيانًا يَسرُد لك عَن ظهر قلب عِشرين كتابًا، قال: هَذا فِي الكتاب الفلاني والفلاني... مِن كُتُب الفلاسفة، وهَذا شيء عجيبٌ.

---

(١) ينظر: الرد الوافر لابن ناصر الدِّين الدمشقي (ص:٦٥).

وعلى هَذا اختلافهم فِي نحو قوله: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق:١٧] وأمثاله، فعلى قَول الأَوَّلين؛ يكون التقدير: وعَد الله المُنافِقين النار، كوعْد الذِين مِن قبلكم، ولهم عذاب مُقِيم كالذين مِن قبلكم، أو كعذاب الذين مِن قبلكم؛ ثُم حُذف اثنان مِن هذِه المَعمولات، لدلالة الآخر عليهما، وهم يَستحسِنون حَذْف الأَوَّلين.

وعلى القول الثاني: يُمكِن أن يُقال: الكاف المذكورة بعينها هي المُتعلِّقة بقوله: ﴿وَعَدَ﴾، وبقوله: «وَلَعَنَ»، وبقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾؛ لأنَّ الكاف لَا يَظهَر فيها إعراب، وهَذا علَى القول بأنَّ عمَل الثلاثة النصبَ ظاهرٌ.

وإذا قيل: إنَّ الثالث يَعمَل الرفع، فوجهه: أنَّ العمل واحد فِي اللفظ، إذِ التَّعلُّق تَعلُّقٌ مَعنويٌّ لَا لفظيٌّ.

وإذا عَرَفت أنَّ مِن الناس مَن يَجعَل التَّشبِيه فِي العمل، ومِنهم مَن يَجعَل التَّشبِيه فِي العذاب؛ فالقولان مُتلازِمان، إذِ المُشابَهة فِي الموجِب تَقتضِي المُشابَهة فِي الموجَب، وبالعكس؛ فلا خلافَ مَعنوي بين القولين.

وكذَلِك مَا ذكرناه مِن اختلاف النحويِّين فِي وجوب الحذف وعدمه، إنَّما هُو اختلافٌ فِي تعليلات ومَآخِذَ، لَا تَقتَضي اختلافًا، لَا فِي إعرابٍ ولا فِي مَعنًى، فإذن الأحسن: أن تَتعلَّق الكاف بمَجموع مَا تَقدَّم مِن العمل والجزاء، فيكون التَّشبِيه فيهما لفظًا.

فائدة: بعض الطلبة يُصاب بالإحباط إذا قرأ بعض كتُب شيخ الإسلام رحمه الله؛ فيُقال: ماذا ترى لو أنَّنا أَلقَينا شخصًا لَا يَعرِف السباحة فِي البَحر؟ سيَغرَق؛ فلا تَقرَأ الشيءَ الصعب، اتْرُكه حتَّى تَرتَقِي، وإلَّا فأحيانًا يُرَدِّد الإنسان العِبارة ولَا يَعرِفها، لكِن إذا تَمَرَّن الإنسان علَى كتُبه صار يَفهَمها جيِّدًا، فاقرَأ الفتاوى أولًا، فكلٌّ يَعرِفها، فهي سهلة، وفيها مَآخذُ جيِّدة.

وعلى القولَين الأَوَّلَين: يَكون قد دلَّ علَى أحدهما لفظًا، وعلى الآخر لُزومًا.

وإن سلَكْتَ طريقة الكوفيِّين -على هَذا- كان أبلغَ وأحسنَ، فإنَّ لفظ الآية يَكون قد دلَّ علَى المُشابَهة فِي الأَمرين مِن غير حذف، وإلَّا فيُضْمَرُ: حالُكم كحال الذين مِن قَبلكم، ونحو ذلك، وهو قول مَن قدَّره: أنتم كالذين مِن قبلكم.

ولا يَسَع هَذا المكان بسطًا أكثر من هَذا، فإنَّ الغرض مُتعلِّق بغيره.

وهذه المُشابَهة فِي هؤلاء بإزاء مَا وصَف الله به المُؤمنين، مِن قوله: ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ فإنَّ طاعة الله ورسوله تُنافِي مُشابهة الذين مِن قبلُ، قال سبحانه: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ [التوبة:٦٩][1].

فالخطاب فِي قوله: ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾، وقوله: ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم﴾: إنْ كان للمُنافِقين كان مِن باب خِطاب التَّلوين والالتِفات، وهَذا انتقالٌ مِنَ المُغَيَّب إلى الحضور، كما فِي قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة:٣-٥][2].

---

[١] **قوله تعالى:** ﴿بِخَلَٰقِهِمْ﴾ أي: بنصيبهم، فالخلاق هُو النصيب، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة:١٠٢] أي: مِن نَصِيب.

[٢] مُقتَضى السياق أن يُقال: إيَّاه نَعبُد، لكنَّه انتَقل مِنَ التَّحدُّث عَن الغائب إلى التَّحدُّث إلى المُخاطَب.

ووجه ذَلِك: أنَّ التَّحدُّث عَن الغائبِ بما ذُكِرَ يدلُّ علَى العظمة، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فإنه أبلغ مِن: الحمد لك، ولما استحضرتَ عظمة الله عَزَّوَجَلَّ ووَصَفته بالأوصاف التي تَقتضِي أن يَكون قريبًا مِنك بما أَثنيت عليه مِن الأوصاف، قلت: إيَّاك نَعبُد، فكأنَّك تُخاطِبه مُخاطَبة الحاضر؛ إيَّاك نَعبُد وإيَّاك نَستعِين.

ثمَّ حصَل الانتقال مِن الخطاب إلى المُغَيَّب في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ وكما في قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾ [يونس:٢٢][1].

وقوله: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات:٧] فإنَّ الضمير في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ الأظهر: أنَّه عائد إلى المُستمتِعين الخائِضين مِن هذه الأُمَّة، كقوله فيما بعد: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، وإنْ كان الخطابُ لمَجموع الأُمَّة المَبعوث إليها، فلا يَكون الالتفات إلَّا في المَوضِع الثاني.

وأمَّا قوله: ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ﴾ ففي تفسير عبد الرزَّاق عَن معمر عَن الحسن في قوله: ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ﴾ قال: بدِينهم؛ ويروى ذَلِك عَن أبي هُرَيْرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ ورُوِي عَن ابن عباس: بنصيبهم مِن الآخرة في الدُّنيا؛ وقال آخَرون: بنَصِيبهم مِن الدُّنيا.

قال أهل اللغة: الخَلاق: هُو النَّصيب والحظُّ، كأنَّه مَا خُلِقَ للإنسان، أي: مَا قُدِّرَ له، كما يُقال: القَسْم لما قُسِمَ له، والنَّصيب لما نُصب له، أي: أُثبِت.

ومنه قوله تعالى: ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة:١٠٢] أي: مِن نَصِيب؛ وقول النبي ﷺ: «إِنَّمَا يَلْبَسُ الحَرِيرَ مَنْ لَا خَلَاقَ لَهُ فِي الآخِرَةِ».

والآية تَعُمُّ مَا ذَكَره العُلَماء جميعُهم فإنَّه سبحانه قال: ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ فتِلك القُوَّة التي كانت فيهم كانوا يَستطِيعون أن يَعمَلوا بها للدُّنيا والآخرة، وكذَلِك أموالُهم وأولادهم، وتِلك القُوَّة والأموال والأولاد هُو الخَلاق، فاستمتَعوا بقوَّتهم وأموالهم وأولادهم في الدُّنيا، ونفس الأعمال التي عمِلوها بهذه القوَّة والأموال: هي دِينهم.

---

[١] مُقتَضى السِّياق أن يَقول: وجَرَينَ بكُم بِريح طيِّبة وفرِحْتم بها.

وتلكَ الأعمال لو أرادوا بها اللهَ والدارَ الآخرة لكان لهم ثوابٌ فِي الآخرة عليها، فتَمتُّعهم بها أخَذ حظوظهم العاجلة بها، فدَخَل فِي هَذا مَنْ لم يَعمَل إلَّا لدُنياه، سواء كان جِنس العمل مِن العبادات أو غيرها.

ثم قال سبحانه: ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ [التوبة:٦٩]، وفي «الذي» وجهان: أحسنُهما: أنَّها صفة المَصدر، أي: كالخَوض الذِي خاضوه، فيكون العائد مَحذوفًا، كما فِي قوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ [يس:٧١] وهو كثير فاشٍ فِي اللغة[١].

والثاني: أنَّه صفة الفاعل، أي: كالفريق، أو الصِّنف، أو الجيل الذِي خاضوا، كما لو قيل: كالذِين خاضوا.

وجمع سبحانه بين الاستِمتاع بالخَلاق وبين الخَوض؛ لأنَّ فساد الدِّين إمَّا أن يَقَع بالاعتِقاد الباطِل والتَّكلُّم به، أو يَقَع فِي العمل بخلاف الاعتِقاد الحقِّ، والأَوَّل هُو البِدع ونحوها، والثاني فِسق الأعمال ونحوها، والأَوَّل مِن جهة الشُّبُهات، والثاني مِن جهة الشَّهَوات.

ولهَذا كان السلف يَقولون: احذروا مِن الناس صِنفين: صاحبَ هوًى قد فَتَنه هَواه، وصاحبَ دُنيا أعمَته دُنياه.

وكانوا يَقولون: احذَروا فِتنة العالِم الفاجِر، والعابِد الجاهِل؛ فإنَّ فِتنَتهما فِتنة لكلِّ مَفتون. فهَذا يُشبِه المَغضوب عليهم الذِين يَعلَمون الحقَّ ولا يَتَّبِعونه، وهَذا يُشبِه الضالِّين الذِين يَعمَلون بغير عِلم.

ووصف بعضَهم أحمدُ بن حنبل، فقال رحمه الله: عَن الدُّنيا مَا كان أصبرَه! وبالمَاضِين مَا كان أَشبهَه! أَتَتْه البِدع فنَفاها، والدُّنيا فأَباها.

---

[١] **قوله تعالى**: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ المحذوف: عَمِلته.

وقد وَصَف اللهُ أئمَّة المتَّقين فقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤].

فبالصبر تُتْرك الشَّهَوات، وباليَقين تُدفَع الشُّبُهات.

ومِنه قوله: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر:٣]، وقوله: ﴿أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص:٤٥]، ومِنه الحديث المرسَل عَن النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ البَصَرَ النَّاقِدَ عِنْدَ وُرُودِ الشُّبُهَاتِ، وَيُحِبُّ الْعَقْلَ الْكَامِلَ عِنْدَ حُلُولِ الشَّهَوَاتِ**».

فقوله سبحانه: ﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ﴾ [التوبة:٦٩] إشارة إلى اتِّباع الشَّهَوات، وهو داء العُصاة.

وقوله: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التوبة:٦٩] إشارة إلى اتِّباع الشُّبُهات، وهو داء المُبتدِعة وأهل الأَهواء والخُصومات، وكثيرًا مَا يَجتمِعان، فقَلَّ مَن تَجِد فِي اعتقاده فَسادًا إلَّا وهو يَظهَر فِي عَمَله، وقد دلَّت الآية علَى أنَّ الذين مِن قبلُ استمتَعوا وخاضوا، وهؤلاء فعلوا مِثل أُولئك.

ثمَّ قوله: ﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ﴾ و﴿وَخُضْتُمْ﴾ خبرٌ عَن وقوع ذَلِك فِي الماضي، وهو ذمٌّ لَمن يَفعَله إلى يوم القيامة، كسائر مَا أخبَر الله بِه عَن الكُفَّار والمُنافِقين عند مَبعَث مُحمد ﷺ، فإنَّه ذمٌّ لَمن حاله كحالهم إلى يوم القيامة.

وقد يَكون خبرًا عَن أمر دائم مُستمِرٍّ؛ لأنَّه -وإنْ كان بضمير الخطاب- فهو كالضمائر فِي نحو قوله: «اعبُدوا، واغسِلوا، واركَعوا، واسجُدوا، وآمِنوا» كما أنَّ جميعَ الموجودين فِي وقت النبيِّ ﷺ وبعده إلى يوم القيامة مُخاطَبون بهَذا الكلام؛ لأنَّه كلام الله، وإنَّما الرسولُ مُبلِّغ له، وهَذا مَذهَب عامَّة المُسلِمين.

وإنْ كان بعض مَن تكلَّم فِي أصول الفقه اعتقد أنَّ الضمير إنَّما يَتناوَل المَوجودِين

حين تبليغ الرسول، وأنَّ سائر المَوجودِين دخلوا إمَّا بما علِمناه بالاضطرار مِن استِواء الحُكْم، كما لو خاطب النَّبيُّ ﷺ واحِدًا مِن الأُمَّة، وإمَّا بالسُّنَّة، وإمَّا بالإجماع، وإمَّا بالقياس، فيكون كل مَن حصل مِنْه هَذا الاستِمتاعُ والخوضُ مُخاطَبًا بقوله: ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم﴾، ﴿وَخُضْتُمْ﴾ وهَذا أحسن القَولَين[١].

وقد تَوعَّد اللهُ سبحانه هؤلاءِ المُستمتِعين الخائِضين بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

وهَذا هُو المَقصود هنا مِن الآية، وهو أنَّ الله قد أخبر أنَّ فِي هذِه الأُمَّة مَن استمتَع بخَلاقه كما استمتَعتِ الأُممُ قبلهم، وخاض كالذِي خاضوا، وذمَّهم علَى ذلك، وتَوعَّدهم علَى ذلك.

ثُمَّ حضَّهم علَى الاعتِبار بمَن قبلهم فقال: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ﴾ الآية [التوبة:٧٠].

وقد قدَّمنا: أنَّ طاعة الله ورسوله فِي وصف المُؤمِنين بإزاء مَا وصَف به هؤلاءِ مِن مُشابَهة القرون المُتقدِّمة، وذمِّ مَن يَفعَل ذلك، وأمرُه بجِهاد الكُفَّار والمُنافِقين بعد هذِه الآية؛ دليلٌ علَى جِهاد هؤلاء المُستمتِعين الخائِضين.

ثُمَّ هَذا الذِي دلَّ عليه الكتاب مِن مُشابَهةِ بعضِ هذِه الأُمَّة للقرون الماضية فِي الدُّنيا وفي الدِّين، وذمُّ مَن يَفعَل ذَلِك دلَّت عليه أيضًا سُنَّة رسول الله ﷺ، وتأوَّلَ الآيةَ علَى ذَلِك أصحابُه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

---

[١] وهَذا هُو الظاهر، يعني: الخِطاب فِي كاف المُخاطَب الحاضر يَعُمُّ الأُمَّة كُلَّها، كما أنَّ الخطاب للرسول ﷺ يَعُمُّ الأُمَّة كُلَّها.

فعن أبي هُرَيْرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَن النَّبيِّ ﷺ قال: «**لَتَأْخُذُنَّ كَمَا أَخَذَتِ الأُمَمُ مِنْ قَبْلِكُمْ ذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، وَشِبْرًا بِشِبْرٍ، وَبَاعًا بِبَاعٍ، حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدًا مِنْ أُولَئِكَ دَخَلَ جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ**»، قال أبو هُرَيْرة: اقرؤوا إنْ شِئتُم: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾ الآية، قالُوا: يا رسول الله، كما صنَعت فارسُ والروم وأهلُ الكِتاب؟ قال: «**فَهَلِ النَّاسُ إِلَّا هُمْ؟**».

وعنِ ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي هذِه الآية، أنَّه قال: «مَا أَشْبَهَ الليلةَ بالبارحة! هؤلاء بنو إسرائيل شُبِّهْنَا بهم».

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: أنتم أشبَهُ الأُمم ببني إسرائيل سَمْتًا وهَدْيًا تَتَّبِعون عمَلهم حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ، غَير أنِّي لَا أدري أَتَعبُدون العِجلَ أم لا؟[1].

وعن حُذيفة بن اليَمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: المُنافِقون الذِين مِنكم اليومَ شرٌّ مِن المُنافِقين الذِين كانوا علَى عهد رسول الله ﷺ! قلنا: وكيف؟ قال: أُولئِك كانوا يُخفُون نِفاقَهم، وهؤلاء أَعْلَنوه.

وأمَّا السُّنَّة فجاءت بالإخبار بمُشابَهتهم فِي الدُّنيا، وذَمِّ ذلك، والنَّهي عَن ذلك، وكذَلِك فِي الدِّين.

فأمَّا الأَوَّل الذِي هُو الاستمتاع بالخَلاق:

ففي الصحيحين: عَن عَمرو بن عَوف أنَّ رسول الله ﷺ بعث أبا عُبيدة بن الجرَّاح إلى البحرَيْن يأتي بجِزْيتها، وكان رسول الله ﷺ هُو صَالَحَ أهلَ البحرين، وأمَّرَ

---

[١] فِي الأُمَّة -أُمَّة الدعوة- مَن عبَد العِجل الآنَ، يعني: إذا شابَهوهم فِي المُوجِب لزِم أن يُشابِهوهم فِي الموجَب؛ لأنَّه مَبنيٌّ عليه؛ وكذَلِك إذا شابهوهم فِي المُوجَب فهَذا المُوجَب سبقه موجِب فيكون قد شابهوهم.

عليهم العلاء بن الحضْرَميِّ، فقدِمَ أبو عُبيدة بمالٍ مِن البَحرين، فسمِعتِ الأنصارُ بقُدوم أبي عبيدة، فوافَوْا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ، فلمَّا صلَّى رسولُ الله ﷺ انصرف، فتعرَّضوا له، فتبسَّم رسول الله ﷺ حين رآهم، ثُم قال: «**أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدِمَ بِشَيْءٍ مِنَ الْبَحْرَينِ**»، فقالُوا: أَجَل يا رسول الله، فقال: «**أَبْشِرُوا، وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ، فَوَاللهِ مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ**».

فقد أَخبَر ﷺ أنَّه لَا يَخاف فِتنةَ الفَقْر، وإنَّما يَخاف بَسْطَ الدُّنيا وتَنافُسَها وإهلاكها، وهَذا هُو الاستِمتاع بالخَلاق المَذكور فِي الآية.

وفي الصحيحين: عَن عُقبة بن عامر: أنَّ النَّبيَّ ﷺ خرَج يومًا فصلَّى علَى أهل أُحُدٍ صلاته علَى الميت، ثُم انصرف إلى المِنبَر فقال: «**إِنِّي فَرَطٌ لَكُمْ، وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ، وَإِنِّي وَاللهِ لَأَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الآنَ، وَإِنِّي أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الأَرْضِ** -أَوْ: **مَفَاتِيحَ الأَرْضِ**- **وَإِنِّي وَاللهِ مَا أَخَافُ عَلَيكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي، وَلَكِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَتَنَافَسُوا فِيهَا** -

---

وأمَّا قول ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ فإنه تأخَّر مَوتُه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فإمَّا أن يُقال: إنْ حصَل ممَّن دخلوا فِي الإسلام حديثًا حصَل فيهم المُخالَفة، وإمَّا أن يُقال: مُراده جِنس الأُمَّة.

فهل الاستمتاع الآن بالمَساكن والطعام والمَركوب فِيهِ شيء مِن ذلك؟

فالجواب علَى كل حال: إنْ صدَّنا عمَّا شُرِع لنا فهو مِنْه يَكون استِمتاعًا مُحرَّمًا، وإن لم يَصُدَّ فهو استمتاع مُباح، وهل يَنقُص مِن حظِّنا فِي الآخرة؟

فالجواب: النَّاس يَختلِفون؛ فواحد يَشغَله مَا أعطاه الله مِن الدُّنيا عَن الدِّين فهَذا يُشابِههم تمامًا، وواحد يَكون سببًا لقوَّة إيمانه وكَثْرة إنفاقه وخيراته فينفَع.

وفي رِواية: **وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا- وَتَقْتَتِلُوا فَتَهْلِكُوا كَمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ**». قال عقبةُ: فكان آخرَ مَا رأيتُ رسول الله ﷺ علَى المِنبَر[1].

---

[١] هَذا الحديثُ فِيهِ مَسائل:

أَوَّلُـها: هل صلاة النَّبيِّ ﷺ علَى شُهداء أُحُد صلاتَه علَى الميت بتكبيراتها وتَوجُّهِه إلى القِبلة ومَا أَشبَه ذلك، أو المُراد الدُّعاء؟

الجواب: الثاني هُو المُراد؛ لأنَّ الصلاةَ علَى الميت الصلاةَ المَعهودة لَا تَكون بعد الدَّفْن، إنَّما تَكون قبْل الدَّفن، ولا تَكون بعد ذلك، إلَّا إذا أُعِيدَتِ الصلاة، كما فعَل الرسول ﷺ فِي المَرأة التي كانت تقُمُّ المَسجِد، فصلَّى عليها بعد دَفْنها(١).

المسألة الثانية: أَخبر النَّبيُّ ﷺ أنَّه فرَط أُمَّته، أي: مُقدَّمُها، وذلك يوم القيامة، فإنَّه ﷺ يَكون فرَطًا لهم وشهيدًا عليهم، وهو فرَطهم علَى الحَوض يَقِف حتَّى تَشرَب أُمَّته مِنه، جعلَنا الله وإيَّاكم مِنهم.

المسألة الثالثة: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قد يُمثَّل له مَا لم يَكُن فِي الدُّنيا وهو فِي الآخِرة -أعني: الشيءَ فِي الآخرة ويُمثَّل له فِي الدُّنيا-، كحَوضه ﷺ فإنَّه يَقول: «**إِنِّي لأَنْظُرُ إِلَى حَوضِي الآنَ**»، فالحوض إِذَنْ مَوجود، وكذَلِك رأى الجنَّة ورأى النار فِي صلاة الكسوف(٢).

المسألة الرابعة: أنَّه عليه الصلاة والسلام قال: «**لَا أَخَافُ أَنْ تُشْرِكُوا**»، فهل يعني ذَلِك انتفاء الشِّرْك فِي أُمَّته؟ أو يعني ذَلِك أنَّه يَخاف عليهم أكثرَ مِن خوفه مِن الشِّرْك بفَتْح الدُّنيا؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب كنس المسجد والتقاط الخرق والقذى والعيدان، رقم (٤٥٨)، ومسلم: كتاب الجنائز، باب الصلاة على القبر، رقم (٩٥٦/ ٧١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس، رقم (٨٦)، ومسلم: كتاب الكسوف، باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار، رقم (٩٠٥/ ١١) من حديث أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وفي صَحيح مُسلم عَن عبدالله بن عَمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَن رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا فُتِحَتْ عَلَيْكُمْ خَزَائِنُ فَارِسَ وَالرُّومِ، أَيُّ قَوْمٍ أَنْتُمْ؟**» قال عبد الرحمن بن عَوف: نَكون كما أمَرَنا الله عَزَّوَجَلَّ، فقال رسول الله ﷺ: «**تَتَنَافَسُونَ، ثُمَّ تَتَحَاسَدُونَ، ثُمَّ**

الجواب: الثاني؛ لأنَّ الشِّرْك وقَع فِي أُمَّته، ومِثل ذَلِك قوله ﷺ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يُعْبَدَ فِي جَزِيرَةِ العَرَبِ**»[1] ليس مَعناه أنَّه لن يقَع الشِّرْك فيها؛ بل المعنَى أنَّ هَذا كان ظنَّ الشيطان حين رأى الفتح المُبين، وحلول التوحيد فِي الجزيرة، ظنَّ أنَّه لن يَعود الشِّرْك، فأَيِس، وهَذا لَا يَعنِي أنَّ الله لَا يُقدِّر الشِّرْك، فلا يكون فِيهِ حُجَّة لَمن طاف بالقبور، ودعا أصحاب القبور فِي الجزيرة، وقال: إنَّ هَذا ليس بشِرْكٍ؛ لأنَّ الشيطان قد أَيِس أن يُعبَدَ مِن دون الله فِي هذِه الجزيرة.

فنقول: إنَّ الإخبار عَن الشيء لَا يَعنِي بأنَّه جائز، أرأيت أنَّ النَّبِيَّ ﷺ أخبَر أنَّ هذِه الأُمَّة ستركب طُرُق مَن كان قبلها؟ قالُوا: اليهود والنصارى، قال: «**فمَنِ الناس إلَّا هؤلاء؟!**» وهل هَذا الذِي أخبَر بِه الرسول ﷺ يعني أنَّه جائز؟ لا، ليس بجائز، بل أخبرنا بذلك تَحذِيرًا؛ وكذَلِك إخباره بأنَّ الظَّعِينة -المرأة- تَخرُج مِن كذا إلى كذا، لَا تَخشى إلَّا الله[2]، ليس معنَى هَذا أنَّه يَجوز أن تُسافِر بلا مَحرَم، لكن هَذا حكاية للواقع، فالواقع شيء، والشرع شيءٌ آخَرُ.

المسألة الخامسة: التحذير مِن التَّكالُب علَى الدُّنيا؛ لأنَّها إذا فُتِحَت علَى الإنسان أهلكَتْه، وهَذا هُو الواقع، ولذلك تَجِد أَنعَمَ الناس بالًا، وأَكثَرهم خُشوعًا هُمُ الأَقلِّين، لكنَّ الأكثرِين تُلهِيهم الدُّنيا، وتَشغَلهم بلا اختيارٍ مِنهم، فيَتَنافَسون فيها فيَهلِكون.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صفات المنافقين، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس، وأن مع كل إنسان قرينًا، رقم (٢٨١٢/ ٦٥)، من حديث جابر بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٥٩٥) من حديث عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تَتَدَابَرُونَ -أَوْ: تَتَبَاغَضُونَ- أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، ثُمَّ تَنْطَلِقُونَ إِلَى مَسَاكِينِ الْمُهَاجِرِينَ، فَتَحْمِلُونَ بَعْضَهُمْ عَلَى رِقَابِ بَعْضٍ».

وفي الصحيحين عَن أبي سعيد الخُدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جلَس رسول الله ﷺ على المِنبَر، وجلسْنا حوله، فقال: «إِنَّ مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي: مَا يُفْتَحُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا» فقال رجُل: أَوَيأتي الخيرُ بالشرِّ يا رسول الله؟ قال: فسكَت عنه رسول الله ﷺ، فقيل: مَا شأْنُكَ تُكلِّم رسول الله ولا يُكلِّمُكَ؟ قال: ورأينا أَنَّه يُنزَّل عليه، فأَفاق يَمسَح عنه الرُّحَضَاء[١].

وقال: «أَيْنَ هَذَا السَّائِلُ؟» وكأَنَّه حَمِدَه، فقال: «إِنَّهُ لَا يَأْتِي الخَيْرُ بِالشَّرِّ» -وفِي رِواية: فقال: «أَيْنَ السَّائِلُ آنِفًا؟ أَوَخَيْرٌ هُوَ؟» ثلاثًا- «إِنَّ الخَيرَ لَا يَأْتِي إِلَّا بِالخَيرِ، وإِنَّ مِمَّا يُنبِتُ الرَّبِيعُ مَا يَقتُلُ حَبَطًا أَوْ يُلِمُّ إِلَّا آكِلَةَ الخَضِرِ، فَإِنَّهَا أَكَلَتْ حَتَّى إِذَا امْتَدَّتْ خَاصِرَتُهَا اسْتَقْبَلَتْ عَينَ الشَّمْسِ، فثَلِطَتْ وَبَالَتْ، ثُمَّ رَتَعَتْ، وَإِنَّ هَذَا المَالَ خَضِرٌ حُلْوٌ، وَنِعْمَ صَاحِبُ الْمُسْلِمِ هُوَ، لِمَنْ أَعْطَى مِنْهُ المِسْكِينَ وَاليَتِيمَ وَابْنَ السَّبِيلِ -أو كما قال رسول الله ﷺ- وإِنَّهُ مَنْ يَأْخُذُهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، وَيَكُونُ عَلَيْهِ شَهِيدًا يَوْمَ القِيَامَةِ»[٢].

---

[١] قوله: « الرُّحَضَاء»: أي: العرَق.

[٢] هَذا الذي ذَكَره النَّبيُّ عليه الصلاة والسلام هُو الذِي وقَع، والإنسان الذِي يَأْخُذ المال بِغير حقِّه كالذِي يَأكُل ولا يَشبَع؛ ولذلكَ تَجِد أكثر الناس نَهمةً فِي المال الحرام همُ الذين أخذوه مِن طريق الحرام، فإنَّ الله يَجعَل فِي قلوبهم نهمةً شديدة علَى اكتساب المال بشيء مُحرَّم، لكن الذِي يَكتسِب المال بالطريق الحلال تَجِده مُطمَئِنًّا غيرَ شَرِهٍ؛ ولهَذا مثَّل الله الذين يَأكُلون الرِّبا بالذِي يَتَخبَّطُه الشيطان مِن المَسِّ، يَعنِي: أنَّهم يَتصرَّفون تَصرُّف المَجانِين.

وروى مُسلم فِي صحيحه عَن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَن النَّبيِّ ﷺ قال: «**إِنَّ الدُّنيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيفَ تَعْمَلُونَ، فاتَّقُوا الدُّنيَا واتَّقُوا النِّسَاءَ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ**».

فحذَّر رسول الله ﷺ مِن فِتنة النساء معلِّلًا بأنَّ أوَّلَ فِتنة بني إسرائيل كانت فِي النساء.

وهَذا نَظير مَا سنَذكُره مِن حديث مُعاوية عنه ﷺ أنَّه قال: «**إِنَّمَا هَلَكَ بَنُو إِسْرَائِيلَ حِينَ اتَّخَذَ هَذِهِ نِسَاؤُهُمْ**» يعني: وَصْل الشَّعر.

وكثير مِن مُشابهات أهل الكتاب فِي أعيادهم وغيرها إنَّما يَدعو إليها النساء[١].

وأمَّا الخوض كالذِي خاضوا: فرُوِّينا مِن حديث الثَّوْري، عَن عبد الرحمن بن زياد بن أَنْعُم الإفريقي، عَن عبدالله بن يزيد، عَن عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ، حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّهُ عَلَانِيَةً كَانَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ، وَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ**

---

[١] يأتي هَذا التَّحذير مِن رسول الله ﷺ عَن الانهماك فِي الدُّنيا، وكذَلِك ابتغاء النساء؛ لأنَّ النساء جَمَعن بين نَقْص الدِّين ونَقْص العقْل، وإذا تُرِكَ الأمر لهنَّ فإنَّه سيَحصُل مِن الشرِّ والفَساد مَا لَا تُحمَد عُقْباه.

وانظُرِ الآن إلى النساء فِي البلاد التي لَا تَحْتَرم المرأة وتَجعلُها فِي صورة مُبتذَلة، ما حصَل مِن الشرِّ هناك، هم الآنَ يَتمنَّون الخَلاص ممَّا هم فيه، ولكن أنَّى لهم التَّناوُش مِن مكان بعيد، وقدِ استقرَّ هَذا فِي أعرافهم، وفي بلادهم؟!

فالمُهِمُّ: أنَّ الرسول ﷺ حذَّر مِن النساء، وأخبَر أنَّ أول فِتنة بني إسرائيل كانت فِي النساء تحذيرًا مِن هَذا.

تَفَرَّقَتْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً» قالُوا: مَن هي يا رسول الله؟ قال: «مَا أَنَا عَلَيْهِ اليَوْمَ وَأَصْحَابِي». رواه أبو عيسى الترمذي، وقال: هَذا حديث غريب مُفَسَّر، لَا نَعرِفه إلَّا مِن هَذا الوجه.

وهَذا الافتِراق مَشهور عَن النَّبيِّ ﷺ مِن حديث أبي هُرَيْرة، وسعد، ومعاوية، وعمرو بن عوف، وغيرهم -وإنَّما ذكرت حديث ابن عمرو لما فِيهِ مِن ذِكْر المُشابَهة-:

فعن مُحَمَّد بن عمرو، عَن أبي سلمة، عَن أبي هُرَيْرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: «تَفْتَرِقُ اليَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، أَوِ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَالنَّصَارَى مِثلَ ذَلكَ، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً». رواه أبو دَاوُد وابن ماجه والترمذي، وقال: هَذا حديث حسن صحيح.

وعن مُعاوية قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ الكِتَابَيْنِ افْتَرَقُوا فِي دِينِهِمْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً -يَعنِي: الأهواءَ- كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهِيَ الجَمَاعَةُ»، وقال: «إِنَّهُ سَيَخْرُجُ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ تَتَجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى الكَلَبُ بِصَاحِبِهِ، فَلَا يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ وَلَا مِفصَلٌ إِلَّا دَخَلَهُ»، وَاللهِ يَا مَعْشَرَ العَرَبِ لَئِنْ لَمْ تَقُومُوا بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ؛ لَغَيْرُكُمْ مِنَ النَّاسِ أَحْرَى أَنْ لَا يَقُومَ بِهِ[١].

هَذا حديثٌ مَحفوظ مِن حديث صفوان بن عمرٍو، عَن الأزهر بن عبدالله الحرازي، عَن أبي عامر عبدالله بن لُحَيٍّ، عَن معاوية، رواه عنه غيرُ واحِد، مِنهم: أبو اليَمان، وبقيَّةُ، وأبو المغيرة؛ رواه أحمد وأبو دَاوُد فِي سننه.

وقد روى ابن ماجَهْ هَذا المعنَى مِن حديث صفوان بن عمرو: عَن راشد بن سعد، عَن عَوف بن مالك الأشجعي، ويُروَى مِن وجوهٍ أُخرى.

---

[١] والظاهر لي مِن الكلام أن قوله: «وَاللهِ يَا مَعْشَرَ العَرَبِ» أَنَّه مُدرَج مِن كلام مُعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأنَّ مِثل هَذا الخطاب لَا يَرِد مِن النبيِّ صلى الله عليه وسلم.

فقد أَخبَر النبيُّ ﷺ بافتِراق أُمَّته علَى ثلاث وسبعِين فِرقةً، واثنتان وسبعون لَا رَيبَ أَنَّهم الذين خاضوا كخَوض الذين مِن قبلهم.

ثُمَّ هَذا الاختلاف الذِي أَخبَر بِه النبيُّ ﷺ إمَّا فِي الدِّين فقط، وإمَّا فِي الدِّين والدُّنيا، ثُمَّ قد يُؤوَّل إلى الدِّماء، وقد يَكون الاختلاف فِي الدُّنيا فقط.

وهَذا الاختِلاف الذِي دلَّت عليه هذِه الأحاديث هُو ممَّا نهى الله عنه فِي قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟﴾ [آل عمران:١٠٥]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [الأنعام:١٥٩]، وقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام:١٥٣].

وهو مُوافِق لما رواه مسلم فِي صحيحه عَن عامر بن سعد بن أبي وقَّاص، عَن أبيه: أَنَّه أَقبَل مع رسول الله ﷺ فِي طائفةٍ مِن أصحابه مِن العالية حتَّى إذا مرَّ بمسجِد بني معاوية دخل، فركَع فِيهِ ركعتَين، وصلَّينا معه، ودعا ربَّه طويلًا، ثُم انصرَف إلينا، فقال: «**سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا، فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ، وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً، سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ، فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُ رَبِّي أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْغَرَقِ، فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ، فَمَنَعَنِيهَا**»[١].

---

[١] هَذا الحديث لَا يُنافي مَا وقَع فِي بَعض الأُمَّة مِن الغَرَق ونحوه؛ لأن المَقصود الهلاك العامُّ، وكذَلِك السَّنَة العامَّة؛ ولهَذا مَا زال فِي بعض الدول الإسلامية غَرَق أو عواصف مُدمِّرة أو جدْب أو قحْط أو جوع، لكن هَذا لَا يَعنيه الحديث؛ لأنَّه لم يُهلِكهم بسَنَة عامَّة.

وأمَّا: أن يَجعَل بأسهم بينهم، وهَذا أيضا يُعرَف مِن سَيْر التاريخ، يَخبو أحيانًا ويَعود، أحيانًا تَكون الأمور ساكنة، وأحيانًا تَثور، ويَكون بأسهم بينهم، لكن لَا يُنافيه أن يَكون هناك زمَن يَأتي يَكون فِيهِ الهَرْج -أي: القتل-، بمعنَى لَا يُسأل القاتل: لماذا قُتِل؟ ولا المقتول: فيمَ قُتِلَ؟ القتْل قتْل طيش وحُمق ليس عندهم رويَّة، لَا القاتل ولا المَقتول.

وروى أيضًا في صحيحه عَن ثَوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زَوَى لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الكَنْزِينِ؛ الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِذَا قَضَيْتُ قضاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ: أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا -أو قال: مِنْ بَيْنِ أَقْطَارِهَا- حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا».

ورواه البَرْقاني في صحيحه، وزاد: «وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الأَئِمَّةَ المُضِلِّينَ، وَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمُ السَّيفُ لَمْ يُرْفَعْ إِلَى يَومِ القِيامَةِ، وَلا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالمُشْرِكِينَ، وَحَتَّى يَعْبُدَ فِئَامٌ مِنْ أُمَّتِي الأَوْثَانَ، وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلاثُونَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّه نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَلا تَزالُ طائِفَةٌ مِن أُمَّتي عَلَى الحَقِّ مَنصورةً، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى».

وهَذا المَعنَى مَحفوظ عَن النَّبيِّ ﷺ مِن غير وجْه؛ يُشِير إلى أنَّ التَّفرقة والاختلاف لَا بُدَّ مِن وُقوعِهما في الأُمَّة، وكان يُحَذِّر أُمَّتَه مِنْه لينَجُوَ مِنْه مَنْ شاء اللهُ له السلامةَ[1]، كما روى النَّزَّال بن سَبْرة، عَن عبدالله بن مسعود قال: سمِعت رجُلًا قرأ آيةً سمِعتُ

---

[١] يَعنِي: أنَّ الرسول عليه الصلاة والسلام أخبَر بأنَّه سيَكون هَذا الاختلافُ، وقد كان، لكنَّه أخبَر بذلك لَا تقريرًا، ولكن تَحذِيرًا؛ لنَنجُوَ مِنْه إن شاء الله.

وقوله ﷺ: «وَإِذَا وَقَعَ عَلَيهِمُ السَّيفُ لَمْ يُرْفَعْ إِلَى يَومِ القِيامَةِ»[1]، معناه: إذا قاتل بعضُهم بعضًا استمَرَّ ذلك.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الفتن والملاحم، باب ذكر الفتن ودلائلها، رقم (٤٢٥٢).

النبيَّ ﷺ يَقرَأ خلافها، فأخَذتُ بيده، فانطلقتُ به إلى النبيِّ ﷺ، فذكرتُ ذَلِك له، فعرَفتُ في وجهه الكراهية، وقال: «**كِلَاكُمَا مُحْسِنٌ، وَلا تَخْتَلِفُوا، فَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ اخْتَلَفُوا فَهَلَكُوا**» رواه مسلم.

نهَى النبيُّ ﷺ عَن الاختِلاف الذِي فِيهِ جَحدُ كل واحد مِن المُختَلِفَيْن مَا مع الآخر مِن الحقِّ؛ لأنَّ كلا القارِئَين كان مُحسِنًا فيما قرَأَه، وعلَّل ذَلِك بأنَّ مَن كان قبلنا اختَلَفوا فهلَكوا؛ ولهَذا قال حُذيفةُ لعثمانَ: أدرِكْ هذِه الأُمَّةَ، لَا تختلفْ فِي الكتاب كما اختَلَف فِيهِ الأُمَم قبلهم؛ لَمَّا رأى أهلَ الشام وأهلَ العراق يَختلِفون فِي حروف القُرآن الاختلافَ الذِي نهى عنه النَّبيُّ ﷺ، فأفاد ذَلِك شَيئَين:

أحدهُما: تحريم الاختلاف فِي مِثل هَذا.

والثاني: الاعتِبار بمَن كان قَبْلنا، والحذَر مِن مُشابَهتِهم.

واعلَم أنَّ أَكثَر الاختِلاف بين الأُمَّة الذِي يُورِث الأهواءَ تَجِدُه مِن هَذا الضرْب، وهو أن يَكون كلُّ واحد مِن المُختَلِفين مُصِيبًا فيما يُثبِتُه، أو فِي بَعضِه، مُخطِئًا فِي نَفْي مَا عليه الآخَر، كما أنَّ القارِئَين كلٌّ مِنهما كان مُصِيبًا فِي القراءة بالحرف الذِي علِمه، مُخطِئًا فِي نَفْي حَرْف غيره، فإنَّ أَكثَر الجهْل إنَّما يَقَع فِي النَّفْي الذِي هُو الجُحُود والتَّكذِيب، لَا فِي الإثبات؛ لأنَّ إحاطةَ الإنسان بما يُثبِته أيسرُ مِن إحاطته بما يَنفِيه[1]، ولهَذا نُهِيَت هذِه الأُمَّةُ أن تَضرِب آياتِ الله بعضَها ببعض؛ لأنَّ مَضمون الضرب الإيمان بإِحدَى الآيتَين والكُفْر بالأخرى إذا اعتُقِد أنَّ بينهما تَضادًّا؛ إذِ الضِّدَّان لَا يَجتَمِعان.

---

[١] هَذا صحيحٌ؛ لأنَّ الإحاطة بالمُثْبَت سَهلة، يُمكِن للإنسان مَعرِفتها بالتَّتَبُّع، لكن بالنفي لَا يَتمَكَّن مَن تَتبُّع العُلماء مِن أولِهم لآخِرهم ليَعرِف أنَّ هَذا لم يَقُلْه أَحَدٌ؛ ولهَذا كان النفيُ صَعْبًا جِدًّا، ويَجِب أنْ يَتنبَّهَ الإنسان لهَذا الشيءِ، وأنْ لَا يَتعجَّل فِي قول: لم يَقُل بِه أحدٌ، أو مَا أشبهَ ذلك؛ لأنَّه قد يُخطِئ كثيرًا؛ فالإحاطة مُتعذِّرة أو مُتعسِّرة.

ومِثل ذلك: مَا رواه مسلم أيضًا عَن عبدالله بن رَباح الأنصاري: أنَّ عبدالله بن عمرو قال: هَجَّرت إلى رسول الله ﷺ يومًا، فسمِعتُ أصواتَ رجُلَين اختَلفا فِي آية، فخرَج علينا رسول الله ﷺ يُعرَفُ فِي وجهِه الغضبُ، فقال: «**إِنَّما هَلَكَ مَن كانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ بِاختِلافِهِمْ فِي الكِتابِ**»؛ فعلَّل غضَبه ﷺ بأنَّ الاختِلاف فِي الكِتاب سَبب هلاك مَنْ كان قَبلنا، وذلك يُوجِب مُجانَبة طريقهم فِي هَذا عَينًا، وفي غيره نَوعًا.

والاختِلاف علَى مَا ذكره الله فِي القُرآن قِسمان:

أحدُهُما: يَذُمُّ الطائِفتَين جميعًا، كما فِي قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود:١١٨-١١٩]، فجعَل أهلَ الرحمة مَستثنَينَ مِن الاختِلاف، وكذَلِك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة:١٧٦]، وكذَلِك قوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران:١٩]، وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران:١٠٥]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام:١٥٩].

وكذَلِك وصَفَ اختلاف النصارى بقوله: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة:١٤].

ووصَف اختِلاف اليهود بقوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة:٦٤]، وقال: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون:٥٣].

وكذَلِك النبيُّ ﷺ لـمَّا وَصَف أنَّ الأُمَّة ستَفتَرِق علَى ثلاث وسبعين فِرقةً، قال: «**كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً وَهِيَ الجَمَاعَةُ**» وفي الرِّواية الأُخْرى: «**مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ اليَوْمَ وَأَصْحَابِي**».

فبيَّن أنَّ عامَّة المُختلِفين هالِكون مِن الجانِبَين، إلَّا فِرقةً واحدةً، وهم أهل السُّنَّة والجماعة.

وهَذا الاختِلاف المَذموم مِن الطرفَين، يَكون سببه: تارةً فسادَ النِّيَّة؛ لما فِي النُّفوس مِن البغي والحسَد، وإرادة العُلُوِّ فِي الأرض، ونحو ذلك، فتُحِبُّ لِذلك ذمَّ قول غيره أو فِعله، أو غلبته لتتميَّز عليه، أو يُحِبُّ قول مَن يُوافِقه فِي نسَبٍ أو مَذهَب، أو بلد، أو صداقة، ونحو ذلك؛ لما فِي قيام قوله مِن حُصول الشَّرف له والرئاسة، ومَا أكثرَ هَذا فِي بني آدم! وهَذا ظُلم.

ويَكون سببه تارةً جهلَ المُختَلِفَين بحقيقة الأمر الذِي يَتنازَعان فيه، أو الجهل بالدَّليل الذِي يُرشِد بِه أحدُهُما الآخر، أو جهل أحدهما بما مع الآخر مِن الحقِّ فِي الحُكْم، أو فِي الدَّليل؛ وإنْ كان عالِمًا بما مع نفسه مِن الحقِّ حُكمًا ودليلًا.

والجهل والظلم هُما أصل كُلِّ شَرٍّ، كما قال سبحانه: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢].

أمَّا أنواعه: فهي فِي الأصل قِسمان: اختلاف تَنوُّع، واختلاف تَضادٍّ.

واختلاف التَّنوُّع علَى وجوه: مِنْه مَا يَكون كلُّ واحِد مِن القولَين أو الفعلَين حقًّا مَشروعًا، كما فِي القِراءات التي اختلف فيها الصحابة، حتَّى زَجَرَهم عَن الاختلاف رسولُ الله ﷺ، وقال: «**كِلاكُما مُحْسِنٌ**».

ومِثله اختِلاف الأنواع فِي صِفة الأذان والإقامة، والاستِفتاح والتَّشهُّدات، وصلاة الخوف، وتكبيرات العِيد، وتكبيرات الجنازة، إلى غير ذَلِك مما قد شُرع جميعُه، وإنْ كان قد يُقال: إن بعض أنواعه أفضلُ.

ثُمَّ نَجِد لكثير مِن الأُمَّة فِي ذَلِك مِن الاختلاف مَا أَوجَب اقتِتالَ طوائفَ مِنهم، علَى شفع الإقامة وإيتارِها ونحو ذلك، وهَذا عَيْن المُحرَّم، ومَن لم يَبلُغ هَذا المَبلَغ،

فتَجِد كثيرًا مِنهُم فِي قلبه مِن الهوى لأَحَد هذِه الأنواع والإعراض عَن الآخَر، أو النهي عنه مَا دخل بِه فيما نَهى عنه النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم[١].

---

[١] وهَذا الذِي ذكَره رحمه الله واقِع؛ فإنَّك تَجِد فِي كثير مِن الأُمَّة هَذا الاختلاف ممَّا أَوجَب اقتِتال الكثير مِنهم علَى الشَّفْع أو الوَتر فِي الإقامة، ولقد حدَث أنَّنا يومًا كنَّا فِي منًى، وأتاني المُشرِف علَى المُخيَّم بطائفَتَين مختلفتَيْن من الحُجَّاج يَسُبُّ بعضُهما بعضًا سبًّا شديدًا، فحاوَل الإصلاح لكن مَا استطاع، فعلَى أيِّ شيء اختَلفا؟ علَى وضْع اليدين علَى الصدر وإرسالهما، كلُّ واحدة تَلعَن الأخرى والعياذُ بالله، مع أنَّ هذِه المَسألة سهلة، ليست مِن أُصول الدِّين، ولَيسَت مِن مَسائل الدِّين الكبيرة، بل مِن المَسائِل الصغيرة التي يسوغ فيها الاختِلاف.

وهَذا مَا يقوله الشيخ -المُؤلِّف رحِمه الله- يَقتَتِلون علَى الشفع والوتر فِي الإقامة، مِن الناس مَن لَا يَصِل إلى هَذا المَبلَغ، أي: الاقتتال، لكن تَجِد فِي قَلْبه كراهةً لهَذا الشخْص؛ لأنَّه خالَفه فيما اختار مِن الأنواع، فمثلًا: تَجِد مِن الناس مَن يَكرَه مَن يَسجُد مُقدِّمًا يَديه، ويَكرَهه كراهةً قلبيَّةً، مع أنَّ الأمْر واسِع.

ومِن الناس مَن يَكرَه مَن لَا يَجلِس للاستِراحة، كراهةً قلبيَّةً ويُبغِضه؛ فهَذا حرام، لأنَّ مِثل هذِه المَسائِل التي للاختلاف فيها مَساغ، يَجِب أن يَكون صدرك واسعًا رَحْبًا، تَتَحمَّل، فكيف تَرضَى لنفسك أن تَكرَهَ هَذا الذِي خالَفَكَ؟! ولو أنَّه كرِهكَ لأنكَرتَ عليه، مع أنَّ الأَمر كلَّه داخل فِي الاجتِهاد، والله المُستَعان.

وبعض الناس يَكون فِي قَلْبه مِن الهَوَى أن يُعرِض عَن هَذا الوارد، فإذا سمِع إنسانًا يَستَفتِح -مَثَلًا- بِحدِيث أبي هُـرَيْرة: «**اللَّـهُمَّ بَاعِـدْ**»[1] كـرِه الحديثَ؛ لأنَّ فُـلانًا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب ما يقول بعد التكبير، رقم (٧٤٤)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال بين تكبيرة الإحرام والقراءة، رقم (٥٩٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومِنه مَا يَكون كلٌّ مِن القولَين هُو فِي معنَى قول الآخر، لكنِ العِبارَتان مُختلِفَتان، كما قد يَختلِف كثيرٌ مِن الناس فِي ألفاظ الحدود، وصِيَغ الأدلَّة، والتعبير عَن المُسمَّيات، وتقسيم الأحكام وغير ذلك، ثُمَّ الجَهْل أو الظُّلم يُحمل علَى حَمْد إِحدَى المَقالَتَين وذمِّ الأخرى[١].

ومِنه مَا يَكون المَعنَيان غيرَين، لكن لَا يَتَنافَيَانِ، فهَذا قولٌ صحيحٌ، وهَذا قولٌ صحيحٌ، وإن لم يَكُن مَعنَى أحدهما هُو مَعنَى الآخَر، وهَذا كثيرٌ فِي المُنازَعات جِدًّا.

ومِنه مَا يَكون طَرِيقَتان مَشروعتان، ورجُلٌ أو قومٌ قد سَلَكوا هذِه الطريقَ، وآخرون قد سَلَكوا الأُخرى، وكلاهُما حَسَن فِي الدِّين، ثُمَّ الجَهل أوِ الظُّلْم يُحمَل علَى ذمِّ إِحداهُما، أو تَفضِيلها بلا قَصْد صالِح، أو بلا عِلْم، أو بِلا نيَّةٍ.

= يَستَفتِح به؛ وكذَلِك إذا سمِع مَن يَستفتِح بـ: «**سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكِ**»(١)، كذَلِك إذا رأى مَن يَقنُت فِي الفرائض -بسبب أو غير سبب- كرِهه، وهَذا غير صحيح.

[١] هَذا أيضًا فِي الاختِلاف الذِي لَا يُوجِب أن تَختَلِف القلوب؛ كالحدود أو التعريفات؛ فمثلًا: مَا هي الصلاة؟ مَا هي الطهارة؟ صِيَغ الأدلَّة، مَثلًا: يَختَلِفون فِي الصِّيَغ: هل صِيغَة الأَمْر -مثلًا- هي فِعْل الأمر وهو مَا دلَّ علَى الطَّلَب وقَبِل نونَ التَّوكِيد، أو هل النهي: هُو المُضارِع المَقرون بلا الناهِيَة، ومَا أشبَه هَذا، كل هذِه أشياءُ سَهْلة، فتَقسِيم الأحكام مثلًا: يُقسِّم الإنسان تقسيماتٍ لم تكُن مِن صنيع مَن كان قَبْله، وتَجِده يُبغِضهم لهَذا، فلماذا تُقسِّم؟ ومَا دَلِيلُكَ علَى أنَّ هذِه الشروط تِسعةٌ، أو أنَّ الأركان أرْبَعَةَ عَشَرَ، مَن دَلَّكَ؟

فيَقول: هَذا مُبتدِع، ويَبنِي حُكْمه علَى كونه مُبتدِعًا أن يَكرَهه، ويُحَذِّر مِنه، مع أنَّ هذِه المَسائل لَا تُوجِب الاختلاف.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب حجة من قال: لا يجهر بالبسملة، رقم (٣٩٩).

وأمَّا اختِلاف التَّضادِّ: فهو القَولان المُتنافِيان، إمَّا فِي الأُصول، وإمَّا فِي الفُروع عند الجمهور الذِين يَقولون: المُصِيب واحد، وإلَّا فمَن قال: كُلُّ مُجتهِد مُصِيبٌ؛ فعنده هُو مِن باب اختلاف التنوُّع، لَا اختلاف التَّضادِّ[١].

فهَذا الخطب فِيهِ أشدُّ؛ لأنَّ القَولَين يَتنافَيان، لكن نَجِد كثيرًا مِن هؤلاء قد يَكون القول الباطل الذِي مع مُنازِعه فِيهِ حقٌّ ما، أو معه دليل يَقتضِي حقًّا ما، فيردُّ الحقُّ فِي الأصل هَذا كلَّه[٢]، حتَّى يَبقَى هَذا مُبطِلًا فِي البعض، كما كان الأوَّل مُبطِلًا فِي الأصل، كما رأيته لكثير مِن أهل السُّنَّة فِي مَسائِل القَدَر والصِّفات والصحابة وغيرهم[٣].

---

[١] الصواب: أنَّه ليس كُلُّ مُجتهِد مُصِيبًا، قَطعًا؛ لقول النَّبِيِّ ﷺ: «إِذَا اجْتَهَدَ الحَاكِمُ فَحَكَمَ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِنْ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»(١)، وهَذا نصٌّ صريح فِي أنَّ المُجتَهِد قد يُصِيب وقد يُخطِئ.

ثُمَّ كيف نَقول: إنَّ كلَّ مُجتهِد مُصيبٌ، مع تَضادِّ القولَين؟ وهل هَذا إلَّا جمعٌ بين الضِّدَّينِ؟ فهَذا القول -وهو أنَّ كلَّ مُجتهِدٍ مُصيبٌ- قولٌ باطلٌ، نَعَم كل مُجتهِد مُصِيب فِي كونه اجتهد، وعمِل مَا يَسَعه فِي إدراك الحقِّ، فهو مُصِيبٌ مِن هذِه الناحية، وأمَّا كونه مُصِيبًا للحقِّ الذِي عند الله تعالى فليس كذلك، ليسَ كُلُّ مُجتَهِدٍ مُصِيبًا.

[٢] معناه: أنَّ بعض الناس يَردُّ القول الذِي يُخالِفه، وإنْ كان فِيهِ بعضُ الحقِّ فيَردُّ الجميع.

[٣] وهَذا غلَطٌ، فالآنَ يُوجَد بعضُ الناس تَعلَم أنَّ له قَدَمَ صدْق فِي الحقِّ والدفاع

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، رقم (٧٣٥٢)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، رقم (١٧١٦/ ١٥)، من حديث عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.